ضحوة الجاسر

قراءة في سيرة العلاّمة حمد الجاسر

لقاء مع أبرز المواظبين على ضحوته الخميسية

حوار: نايف رشدان

■ بعد وفاة العلاّمة الأديب المؤرخ والنسابة الشيخ حمد الجاسر، حرصنا على استيفاء الصلات بابنه وعلاقات الثقافية. وحرصنا على توثيق شيء من حياته على أوراق الصحافة وأن يكون ذلك من خلال وسائل وثيقة صادقة. ولذا اخترنا شاباً مثقفاً حرص منذ سنوات عدة على الاتصال بالعلماء والأدباء أخذ عنهم وجلس إليهم وتحاور معهم وعبّ من معينهم، وهو الزميل الأستاذ سهم بن ضاوي الدعجاني سكرتير التحرير التنفيذي بالمجلة العربية، الذي لازم الشيخ حمد الجاسر وصار من أعمدة ضحوته الخميسية التي كان يعقدها للأساتذة والمثقفين وطلاب العلم طيلة أيام حياته.

● منذ متى بدأت معرفتك بضحوة الجاسر؟

- منذ سبع سنوات تقريبا وأنا متواصل بشكل أسبوعي مع ضحوته أو كما يحب أن يسميها رواده ضحى الخميس في دارة حمد الجاسر العامرة في حي الورود بالرياض.

● كيف كانت تلك الديوانية الثقافية المصغرة؟

- نعم كما ذكرت هي ديوانية ثقافية مصغرة وهي في الأصل عبارة عن جلسة صباحية كل خميس وكانت تسمى (ضحوة) نسبة الى أنها تعقد في وقت الضحى و(الجاسر) لأنها تقام في داره العامرة المتميزة.

● هل كانت له علاقة بالمناسبات الثقافية؟

- هو كما تعرف في السنوات الأخيرة، تعب، ولا يحضر الندوات والمحاضرات لكنه كان يرى أن مناسبة «المئوية» العظيمة ذات خير كثير على الوطن لأنها نبشت فيما لدى المثقفين واستخرجت كنوزاً مدفونة عند بعض مبدعينا المتوارين عن الساحة.

رواد ضحوته وجلساؤه

● من خلال علاقتك الوثيقة بضحوة الجاسر، من أكثر الأساتذة مواظبة على الحضور، ومن كان أبرز مجالسيه؟

- من خلال حضوري شبه الدائم لجلسة شيخنا حمد الجاسر رحمه الله بمنزله ضحى كل خميس تعرفت على العديد من المثقفين من أبناء وطني والذين يحرصون على «ضحوة» شيخهم الجاسر حباً ووفاءً له وعشقاً لعلمه.. أذكر منهم د. عبدالعزيز الخويطر وزير الدولة، أ. عبدالعزيز السالم أمين عام مجلس الوزراء والكاتب بجريدة «الرياض»، د. محمد الرشيد وزير المعارف، الشيخ راشد بن خنين، الشيخ عثمان الصالح، الشيخ عبدالكريم الجهيمان (رفيق دربه)، د. ابراهيم العواجي، الشيخ ابراهيم بن عثمان، سعد الجنيدل، أحمد بن مانع، ابراهيم الصغير، ثنيان الثنيان، فراج العسيلي، عبدالمحسن التويجري، صالح الجهيمان، حمد القاضي، د. عبدالله ناصر الوهيبي، د. عبدالعزيز بن ناصر المانع، د. عبدالله صالح العثيمين، د. أحمد الضبيب، د. عاتق الردادي، د. عبدالعزيز الهلابي، د. عبدالعزيز عبدالله الجلال، د. سليمان العنقري، د. عز الدين موسى، د. عبدالرحمن العثيمين، د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك، أ. محمد الخيال، أ. محمد العمران، محمد الأسمري، عبدالرحمن العبدالكريم ود. حسن الهويمل، د. عبدالعزيز الثنيان، د. محمد الفاضل، محمد الحمدان، د. سليمان الرحيلي، د. عبدالله النافع، د. محمد الصالح، د. سعد الصويان، تركي بن شجاع، فايز الحربي، محمد الأحيدب، راشد بن عسكر، عبدالرحمن الشثري، عبدالعزيز السويلم، خالد بن زيد وغيرهم.. وغيرهم..

اهتماماته

● هل يتبادر الى ذهنك شيء من اهتماماته وما تتميز به جلسته؟

- العفوية في الحديث والبساطة في التناول والمناسبة، سيدة الحوار هذا ما يميز جلسة الجاسر فقيد التراث رحمه الله ولكن لا تخلو جلسة من سرد ذكرياته التي تعبق برائحة الكفاح والجهاد ويفوح منها أريج عشق الترحال في سبيل التحقيق والبحث عن «النادر» في عالم المخطوط فهو - رحمه الله - سائح في بلاد الله، كما يحدثنا علاّمة الجزيرة رحمه الله عن جهود المستشرقين لخدمة التراث ويذكر لنا كثيراً أحاديث وقصصاً عن واقع «التحقيق العلمي» والبحث عن المخطوطات وزيارته للمراكز العلمية والمكتبات العالمية في مختلف البلدان..

أسئلة دائمة

● ما السؤال الذي ينطلق منه باستمرار في حوار الضحوة؟

- هل من جديد في دنيا الثقافة؟ يا أبا عمرو، سؤال يطرحه على معالي د. أحمد بن محمد الضبيب عضو مجلس الشورى واللغوي الشهير وأحد تلامذته المعروفين الذين يحرصون على زيارته، فيرد د. الضبيب: الجديد لديكم يا سيدي!! هذا السؤال يطرحه الفقيد بعدة صيغ منها -

● هل من جديد في المطبوعات؟

● ما جديدك يا (فلان)؟

فبقدر ما كان معلماً ومصدراً للمعرفة، فإنه تلميذ وطالب علم يتطلع مع تلامذته واصدقائه الى الجديد، ليشكل بذلك تحدياً للثابت لديه أو المستقر!!.

تشجيع أبوي

● هل يدور الحوار أو الجلسة حول قراءة كتاب أو يُتداول فيها كتاب؟

- لقد كانت طاولة الفقيد - رحمه الله - تزخر بكل جديد يجلبه اليه تلامذته من كل حدب وصوب تطلعاً لنقد ثاقب أو تشجيع أبوي، والشيخ - رحمه الله - لا يتوانى في ابداء وجهات نظره اما مشافهة أو مراسلة أو نشراً في الصحف المحلية أو «المجلة العربية» أو «العرب».

وهذا - لعمري - أعظم مكافأة من علاّمة الجزيرة، عندما يتناول بقلمه وفكره مؤلفك بالنقد الموضوع والتصحيح.

ذاكرة قوية

● هل تذكر شيئاً يدل على قوة ذاكرته؟

- نعم ذاك بأنه خاطب أحد حضور مجلسه قائلاً: ألست فلاناً؟ وقد وعدتني بشيء الأسبوع الماضي سأذكرك به الآن.. فبادره الشخص المعني في ذهول من الحاضرين الذين استغربوا من قوة ذاكرة الشيخ قائلاً نعم، فقام الى الشيخ وناوله كتاباً عن القهوة، فرد عليه الشيخ بكل ثقة: لقد رأيت هذا الكتاب مخطوطاً قبل أن يطبع وأعرف قيمته وقدرة مؤلفه على التحقيق.

أحد الحضور ابتسم فرحاً بهذا وقال: هكذا هم الرواد ابداع في الشباب وتألق في المشيب.

لا يقرأونه

● ماذا عن علاقة أبنائه بكتبه والدهم؟

- للأسف، ليس لهم صلة، سأله أحد الحاضرين لجلسته، ما نصيب أبنائك من قراءة كتبك؟ فبادره الشيخ مجيباً: أبنائي لا يقرأون كتبي ولا مقالاتي والشيخ رحمه الله لا يرى ضيراً في ذلك فهو يردد على مسامعنا مقولة مشهورة وسمعتها منه مراراً وتكراراً: «لا تقصروا أولادكم على طبائعكم لأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم».

أهم شيء يمكن أن يقدم وهو حسن الاستقبال

ولطيف الترحاب، فهو يجلس على «كرسي» لا يختلف عن بقية كراسي الحضور إلا انه يتمتع بالقسوة حيث يرتاح اليها عند جلوسه يرحمه الله، كما أن الشيخ رحمه الله يرفض تقبيل رأسه من زواره ومحبيه، ويدعو إلى «المصافحة» فقط معللاً ذلك بأنه من خصال العلماء اما ما يقدمه الفقيد لزائريه فهي «القهوة العربية» مع جديد التمر وجيده بالإضافة الى «شاي الزهور الذي تميزت به ضحوة الجاسر ويتخلل ذلك كله «العصائر» الطازجة حسب رغبة ضيوفه.

استمرار بلا توقف

● هل كان الشيخ الجاسر مواظباً على الضحوة ومتى كانت تتوقف؟ وهل كانت تستمر في رمضان؟

- كانت «ضحوة الجاسر» على اسمها تبدأ ضحى يوم الخميس حيث يطل علينا رحمه الله بإشراقته المعهودة عندما يستقبل أحبابه في جلسته الأسبوعية. تبدأ الجلسة مبكراً يوم الخميس حوالي الساعة التاسعة صباحاً وتمتد الى ما بعد الظهر تقريباً، وأحياناً نؤدي الصلاة معه - رحمه الله - بمجلسه يؤمنا أحد تلامذته البررة.

أمّا في شهر رمضان فإن جلسته لا تتوقف ولا تحتجب فقد أخذت من شخصية صاحبها مواصلة العطاء والحرص على الاستمرار لتصبح جدول محبة وعنوان وفاء لعشاق التراث العربي ومحبي التاريخ وطلبة العلم، ففي رمضان تبدأ بعد صلاة التراويح وتمتد حتى منتصف الليل لتذكرنا بصور المسامرات العلمية عند أجدادنا العرب.

إجابات موجزة من الحوار

● هل هناك طريقة لازمة له في الترحيب بالزائر؟

- نعم يكرر دائما (الله يحيي أحبابنا) أو (أهلاً بأحبابنا).

● وخلال الحوار؟

- نعم أيضاً يردد بعض العبارات مثل: (يا استاذي الكريم) (يامولانا) (يا سيدي)... وهكذا..

● هذا كلام جميل من رائد وعلاّمة الا ترى في ذلك تواضعاً جماً..؟

- بلى فهو ينادي محبيه في جلسته الأسبوعية بعبارات تدل على عظيم أدبه وجم تواضعه فعلاً فهو مع الجميع دون استثناء، ورغبة منه في كسر حاجز التردد والصمت لدى الزائرين.

● ما علاقة الشيخ بالشعر؟

- يحب الشعر ويتذوقه ويستشهد به، أما من حيث علاقته النظمية، فهو يكتبه قليلاً، لكنه كان يقول عن شعره إنه «خرابيط».

● هل كان حريصاً على التحدث بالفصحى؟

- نعم وبشكل لافت، حتى انه دائماً يستخدم كلمة «اللاقط» للتعبير عن «الفاكس».

● هل سبق ان سألته عن أضعف مؤلفاته عنده؟

- نعم، نعم، قال لي عن أحد مؤلفاته إنه من «عبث الشيوخ».

● ما الهاجس الذي كان غالباً على تفكير الشيخ في ضحوته؟

- مشكلة الأمة الإسلامية، وخصوصاً في جانبي الفرقة والتفرق.

● وفيما يخص أدب الأمة ولغتها؟

- كان يردد «نريد أن نرقع لغتنا العربية».

● وماذا عن الجانب الصحافي؟ نسمع انه يدعو دائماً إلى التشديد على سلامة اللغة عند الصحافيين والمذيعين بالذات؟

- نعم يرى رحمه الله أن الصحافيين والمذيعين هم أجمل الناس بما تقرره مجامع اللغة العربية على امتداد الوطن العربي.

● نعم، وهذا ملاحظ على مشترك عريض وعلينا ان نكون أكثر وعياً ونتقبل الرأي بجدية وحرص.

- هذا كلام طيب، لولا أن كثيراً من الصحافيين يغضبون من هذه الحقيقة ويتجاهلون أهمية اللغة!!

● ما اللقطات المتميزة واللقطات البارعة التي أخذتها من بعض أحاديثه؟

- كان يجيب كل من يدعو له بطول العمر بقوله: (لا أطلب إلا حسن الخاتمة).

وكان كثيراً ما يردد (أعطاني الله من العمر ما اقنعني) وذلك عندما يسمع أحداً يقول له «أطال الله في عمرك يا شيخ»!!

● هل تعب في علم الأنساب؟

- كان يقول إن الأنساب لا تقوم على أساس علمي بل تعتمد على الذاكرة في مجملها.

● وماذا عن مجلة العرب؟

- إذا سُئل عنها أجاب: «إنها تعرج الآن»!!.

● ما الذي يعجبه ولا يعجبه؟

- عرفت عنه إعجابه بكل إنسان يتعلم ثم يصل إلى أن يحرر إلى فكره بنفسه، ولا يعجبه المقلّد الذي يبقى مقلداً دائماً.

● ما الأفكار التي من الممكن أن نتخذها صورة للحكمة والفلسفة لديه؟

- كان يرى أن كل دعوة أو فكرة جديدة لابد أن يكون لدى أفرادها شدة وقوة.

● هل يبدي له رأياً في جهود السابقين؟

- نعم مثلاً، كان يتحدث عن جهود ياقوت الحموي ثم وصفه بأنه «جمّاع» خاصة اذا قال: حدثني فلان... ولأنه يكثر الخطأ في تعريفات الأقاليم القديمة.

● ما أبرز صفاته وملامح خلاله الحميدة؟

- أبرزها حرصه على الخلق الحسن مع الناس وقلة النوم والجدية في تتبع المعلومة والكرم وحب المعرفة والشفافي والحرص على الصدق..

يربط الغترة

● ولكن هذا شاق جداً على رجل موسوعي وله صلات ومواعيد وعلاقات؟

- «بأربط الرتيمة» بهذه العبارة التراثية الجميلة ختم علاّمة الجزيرة - رحمه الله - ذات يوم حديثه مع أحد محبيه عندما طلب منه شيئاً يخص ذلك المحب، فما كان من الشيخ إلا ان عقد طرف (غترته) قائلاً لمن حوله من محبيه الأوفياء (بأربط الرتيمة) فلما سألناه عن سبب ذلك بادر كعادته وهو يمتح من ذاكرته العميقة: هكذا تفعل العرب، لكي لا ينسى أحدهم أمراً يحرص عليه.

أبيات يرددها

● هل هناك شعر يردده الشيخ في الجلسة بشكل متكرر؟

- كلما زرت الفقيد رحمه الله في الشتاء أسمعه يقول:

اذا جاء الشتاء فدفّوني
فإن الشيخ يهدمه الشتاء..

كما أنه - رحمه الله - في مرضه الأخير كان يردد على مسامعنا إذا سألناه عن صحته:

يا سائلاً عن صحتي اليكها ملخصة
امشي على أربع لصح ما فيها العصا

الصحافيون أضعف علاقة باللغة يحاول دائماً ترقيع الفصحى
كان رحمه الله قليل النوم لا يريد الدعاء بطول العمر

الجاسر يرفض إلقاء شعره ويقول عنه «خرابيط»
أبناء الجاسر لا يقرأون كتبه
لا يحب المقلدين والمتهاونين..
قال لحفيده تكلم بالفصحى فأجابه: أوكيه

سهم الدعجاني:
على كل فكرة جديدة أو دعوة طارئة أن توجد لها رجالاً أقوياء